حاكم صيدا العادل

في العهد العثماني

بقلم جرجي ابراهيم نصر

كنت أقلّب كتاباً قديم العهد ، وقع عرضاً بين يديّ ، فلفت نظري فقرة عابرة ورد فيها ذكر رجل نجهله كل الجهل ، على حين أنه أدّى على ما رواه الراوون خدمات شتّى لإقليم لبنان الجنوبيّ ، وبخاصة لمدينة صيدا . ذلك الرجل هو « عزّت الإدلبي » .

ولمّا كنت أعنى جدّ العناية بالتدقيق في المسائل التاريخية ، فقد لجأت الى أديب الجنوب الشاعر الكبير الاستاذ محمد كامل شعيب العاملي ، مستطلعاً لعلّي أجد عنده ما ينقع غلتي ، وينيلني بُغيتي . فحدثني حفظه الله نقلاً عن شيوخ معمّرين في صيدا ، بحديث هذا الرجل العجيب في تصرّفاته ، الذي آتاه الحظّ ، وهو عربيّ أصيل : فعرف كيف يحرز ثقة أولياء الأمر من الأتراك ، وعلى رأسهم داهية السياسيين في عصره السلطان عبد الحميد الثاني .

قال محدّثي . كان الناس في مدن لبنان ولا سيا في صيدا وعكا ، منذ ثمانين سنة ، لا يجرؤون على مغادرة بيوتهم ليلاً لما كان يسود تلك المدينتين من ظلام ، وما كان يكثر فيهما من اللصوص والقتلة . وكانت مباني هاتين المدينتين تتلاصقان ، بحيث كانت شوارعها دهاليز ضيّقة ،

تكثر فيها الوحول والهوام والحشرات . مما يساعد المجرمين على ارتكاب جرائمهم وهم في مأمن من العقاب .

ولقد كانت صيدا خاصةً في القرن التاسع عشر وما قبله من عصور الظلام والظلم . متأخرة في الحضارة ورقي والتعليم عن سائر المدن اللبنانية ، الى ان قيّض الله لها رجلاً أقال عثرتها . ووضع الحجر الأول في أساس حضارتها وارتقائها . ذلك هو « عزت الادلبي » الذي عهد اليه بمنصب القائمقامية فيها . فأخذ يسهر على نشر الأمن والتعليم وتعميم وسائل الوقاية من الأمراض . والضرب على أيدي الأشرار . وبسط العدل في ربوعها ، حتى اصبحت مثال المدن في رقيها وتقدمها . وبلغت الأوج الذي نراها عليه اليوم .

وإن ننس فلا ننسى . أن مدينة صيدا كانت العاصمة الحقيقيّة للبنان في متاجرها ومدارسها . وفي ما كان يؤمّ ميناءها من المراكب الأجنبية . ولم تكن بيروت في ذلك الزمن . معروفة ولا عاصمة للبنان . ولكن التأخر لم يلبث أن دبّت اليها أسبابه . بعد أن اضطّر فخر الدين المعنيّ الى سدّ مينائها بالصخور والرمال . إتقاء لرسوّ المراكب العثمانية فيها .

وكان عزّت الإدلبي في أول عمره صاحب معامل للرياش والاثاث في مدينة « مانشستر » فاشتهرت معامله بدقّة الصناعة حتى وصلت الى الآستانة . فاشترت منه الحكومة السلطانية . الكثير من الأثاث الفاخر لفرش دورها العمومية . وعجزت عن أن تدفع له ثمن المبيع : لخلوّ خزائنها من المال . فرأى الصدر الأعظم أن يغريه في تقلّد وظيفة ما . في مقابل تنازله عن ديونه . وعرض عليه قائمقامية صيدا : فقبل الرجل والتحق بوظيفته .

ولمّا كانت السلطنة يومئذ في يد الإدارة الاستبدادية : ولم يكن للقضاء من شأن إلاّ في الأمور الشرعيّة : وقليل من الأمور المدنيّة ؛ فقد أمكن هذا الرجل العادل ، الذي أثّرت في أخلاقه وطباعه : إقامته الطويلة في أرقى مدن الانكليز ، أن يطلق يده في شتى جوانب الإصلاح.

وكان اوّل ما وجّه اليه اهتمامه : نشر الأمن . وقطع دابر الأشرار : ولما لم يكن لديه من مخترعات عصرنا ما يمكنه به إنارة الشوارع ليلاً : فقد فرض على كل رجل أو امرأة . حتى على كل فتىً أو فتاة . بلغا سن الرشد . ألاّ يسيروا في الشوارع ليلاً إلاّ وهم يحملون مصابيح من الورق الأبيض . في داخل كل منها شمعة . وهكذا أصبحت صيدا تبدو في الليل . مُنارة الشوارع : فقلّت أعمال النهب واللصوصية . وشمل الأمن ربوع المدينة . ولكنه رأى أنّ هذا الاجراء لم يكن بكافٍ . فأمر بتعليق المصابيح على عمد في الشوارع . وهكذا عزّز في وقتٍ واحد . التجارة الليلية . وأنواع السمر بين الناس . فدبّت الحياة في هذه المدينة التي لم يكن يعيش فيها ليلاً إلاّ اللصوص والرعاع .

وبعد ان نشر الأمن والطمأنينة والسلوى والحياة في عاصمة قضائه . اتجهت عنايته الى طرق المواصلات . وتأمين السائرين فيها من قطّاع الطرق : وبعد أن كان « وادي الزينه » و « صحراء الشويفات » مكمناً للصوص . أصبحا بفضل مخافر الدرك التي أنشأها على أبعاد متساوية . طرقات آمنة . تسير فيها النساء والتجار والمسافرون ليل نهار . آمنين ناعمي البال .

وكان شديداً في عدله . صارماً في قضائه . يضرب على ايدي الأشرار والمعتدين . ويوقع بهم العقاب الرادع . . فطارت شهرته وخشي المجرمون بأسه : وأمن الأخيار والأبرياء جانبه . وأخذت القائمقاميات الأخرى تحذو حذوه وتنسج على منواله .

وآلمه ما رأى عليه الشعب من بؤس وضيق . لما كانت تلك الدولة البائدة : ترهق به كواهل الشعب من « الأعشار » وأموال « الويركو » وبدلات « التجنيد » فرفع عن الأهلين شر تلك الضرائب مدة أربع سنوات . دون ان يبالي بما كان يوجّه اليه من لوم من ذوي الامر في الاستانة : لأنه كان قويّ النصير في تلك العاصمة لما كان يحرص عليه من إشباع نهم الوزراء بالمال والعطاء .

ولربما كان أول من تسرّبت اليـه روح الاشتراكية في بلد الظلم والاقطاع والاستبداد : فاذا شكا أحد الفلاحين الفقراء . ظلم مالك أرض . أو جشع إقطاعي غنيّ مستبدّ . استدعى الغنيّ وانتزع منه سندات التملك أو « الطابو » ومزّقها إرباً إرباً . وهو يقول لذلك الغنيّ : إن السلطان هو مالك الارض . ولستَ أنت إلاّ متصرّفاً بالطابو فيها ؛ واليوم يأمر السلطان بان أنتزع منك هذه السندات . لاسلمها الى مَن يستحقها من الناس . ولا سيما الفقراء الذين يسقونها بعرق جباههم . فأصبح الأغنياء وأصحاب الإقطاعات . يخشون بأس الفلاح الفقير . ويتوسلون اليه بان يخصّهم بشيء من غلّة الارض

ومما يروى عنه أنّ أحد الفلاحين شكا اليه الحاج حسن عسيران صاحب الأملاك الواسعة في كفرحتى متظلماً من ان الحاج يطالبه بعشرين « بشلكاً » ويلحّ عليه بدفعها مهدداً بسجنه وبطرده من أرضه . ورأى ذلك الفلاح رثّ الثياب . عاري الصدر . حافي القدمين . فأخذته به رأفة . وسأله عمّا يملكه . فقال : ليس لي الا حمار وعجل ثور . أشدهما بنير لأفلح بهما الأرض . عاملاً ليل نهار مع هرمي ومرضي . فلا تدر عليّ الأرض إلاّ ما أسدّ به الرمق .

فرثى لحاله وطلب من الحاج حسن عسيران أن يقرضه عشرين بشلكاً ففعل ؛ فأخذ الدراهم ودفعها الى الفلاح وقال له :

خذ هذه الدراهم واشتر بها ثورين واستعن بأهلك على حرث الأرض مجدّاً . وهكذا يمكنك أن تفي دينك في خلال ثلاث سنوات على أقساط متساوية .

ولما احتجّ الحاج على هذا الحكم : ألقى عليه درساً اقتصادياً قد لا يستطيع اليوم أكبر رجال الاقتصاد أن يلقيه :

قال يا حاج : إن الناس جميعاً يعيشون من تعب الفلاح وجنى يديه . ولو هجر الفلاح أرضه : لأقفرت البلاد . وساءت أحوال العباد . فاذا شجع الملاّك فلاحيهم وأمدّوهم بالبذار والبهائم . أمكنهم أن يضاعفوا غلّة الأرض ؛ فيفيد منهم : لا الملاك فقط : بل جميع طبقات الشعب .

وله مئات من الحسنات أمثال هذه نخص منها بالذكر . انه كان أول من فكّر في تحديد الأسعار وجعلها في متناول الفقراء .

وكان كريماً جواداً . محسناً ، فمن مآثره المشهورة أنه كان يصعد صبيحة كل أحد الى مزار دير مار الياس . المجاور لمدينة صيدا . ويقربه مزار آخر باسم مار يوحنا المعمدان . فيلبس لباس الرهبان . ويتعبّد لربه ويأمر بأن تذبح الذبائح بين المزارين . وتوزّع على الفقراء . حتى أنّ كثيرين من الناس كانوا يحملون من اللحوم والخبز قدرًا يكفيهم مؤونة أسبوع كامل . وكان في أكثر الأيام . يذهب الى شاطئ البحر مصطحباً الكثير من الصيادين فيجمع ما يصطادونه من الأسماك . ويدفع لهم ثمنه . ثم يوزّعه على الفقراء .

ولربما كان أول من حرص على حقوق المواطنين . والاحتفاظ بحقوق الادارة المحلية . فقد حدث أن تذمّر بعض قناصل الدول من أمور يطول بنا ذكرها . فصرفهم غاضباً . وأمرهم بالاّ يتدخلوا في أمور الإدارة والأهلين . مهدّدًا متوعدًا .

وحدث ان شكاه والي بيروت الى أولي الأمر في الاستانة . لاستئثاره بالسلطة دونهم : فأوفدت الحكومة أحمد باشا الصلح حوالى سنة ١٨٨٩ للتحقيق والبحث . وجاء المفتش الى سراي الأدلبي في صيدا . فتباطأ القائمقام في مقابلته . ورفض سماع أقواله . وصرفه غاضباً . فشكا هذا أمره الى الوالي . واتفقا على رفع شكواهما الى الاستانة . فجاء الأمر بعزلهما معاً . وهــذا دليل ما كان يتمتّع به الأدلبي من سلطة ونفوذ في دوائر الاستانة .

وكان الصيداويون لم يألفوا بعد لبس البزّة الفرنجية فخلع عليهم الأدلبيّ احدى بزّاته . وأهداهم كرسيًّا كبيرًا مبطّناً بالحرير . مما يستعمله الغربيون في بيوتهم . فكان إعجابهم بهما كبيرًا . فجعلوهما مقصورين على لبس العريس وجلوسه . وكان لعظم شأنهما عندهم . يحتفظون بهما بعناية الى عريس آخر .

وقصارى القول : إنّ هذا الرجل المحسن العادل المتمدن : نشأ في عصر قبل عصره : وكان أول من حمل الى لبنان الذي كان يئن من نير الاستبداد . مبادئ الاشتراكية الحقيقية بعطفه على الفقراء . وتشجيعه للحرّاث والعمال : بل كان اول رجل يذكر عنه أنه أقام قسطاس العدل بين الناس : وضرب على يد الظلم والاستبداد . وحاول ان يخلع على صيدا ثوباً من المدنية الغربية : في عصر ساد فيه التقهقر في كل ناحية خلقية وأدبية وصناعية وزراعية : فضلاً عن أنه ساوى بين الطوائف والأديان. فكان مذهبه ما تأمر به الشرائع السماوية كلها . الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر . ولو أن هذه الشعلة الأولى من نور العدل والمعرفة . استضاء بها اللبنانيون . ولو أنّ زملاء عزّت الأدلبي وخلفاؤه : مشوا على غراره منذ القرن الماضي . لكان لبنان قد تعجل خلع النير عن عنقه . وبلغ منذ أمد طويل ذروة التمدن والاستقلال .

وقد ختم الأدلبي حياته النافعة بأن سار ماشياً على قدميه الى زيارة بيت المقدس . فتوفاه الله وهو راجع من زيارته بين الناقورة وصيدا : ونقل جثمانه بناء على وصيته الى مسقط رأسه « إدلب » حيث اختفى ترابه : ولكن ذكراه ظلّت بين الناس حيّة .

بكاسين – لبنان

جرجي ابراهيم نصر